لـوك فيـري في كتابه De L’amour, une philosophie Pour le xxI siècle

عرض ومراجعة : أ. د. عبد الوهاب شعلان
جامعة سـوق أهـراس

يطل علينا الفيلسوف الفرنسي لوك فيري Luc ferry **(1)** في كتابه de l’amour une philosophie pour le xxi siècle أو "في الحب: فلسفة من أجل القرن الواحد و العشرين"، ليستكمل مشروعه الفلسفي الهادف إلى إعادة بناء التصورات و المفاهيم المتعلقة بحقيقة الفلسفة و غاياتها الإنسانية ، مستهدفا تحرير خطابها من أغلال الميتافيزيقا و التجريد و اللاهوت و حتى العقلانية المدرسية التي أوشكت أن تحيلها إلى ممارسة خائبة تقع على تخوم الهم الإنساني في أحسن الأحوال.

ينطلق لوك فيري من أن الفلسفة – خلافا للآراء السائدة – ليست في خدمة الفلاسفة وحدهم، فعندما أقام ديكارت R. Descartes نظامه الفلسفي على مبدأ العقلانية و الكوجيتيو cogito الشهير، فقد شيّد إطارا فكريا ضمن للأجيال إلى غاية الثورة الفرنسية أفقا من التحرر من وصايا الكنيسة، أو الملك، أو فكر أرسطو و غيرها من أشكال الاستغلال و الإخضاع، « و بهذا المعنى، فإن كل الناس استفادوا من ديكارت، بما في ذلك الذين لم يقرؤوه » **(2)**. من هذا المنطلق فإن العقلانية الديكارتية أسست شروط الانعتاق و الانخراط في التاريخ الإنساني و استعادة المبادرة الفردية مستعينة بالعقل في مواجهة الأوهام.

هناك موضوعان أثيران لدى لوك فيري، حاول إثراءهما عبر تأملات عميقة و محاورات غنية في هذا الكتاب و غيره من مؤلفاته: الأول منهما يكمن في تحديد الفلسفة بوصفها بحثا عن الحياة السعيدة و الحكمة، بعيدا عن الإيمان اللاهوتي، أما الثاني فهو ما يسميه "ثورة الحب" la révolution de l’amour الذي رافق مفهوم الزواج و العائلة التقليدية وصولا إلى زواج الحب.

يستبعد فيري التصورات السكولاستيكية لمفهوم الفلسفة، أي قوى الإقناع ، و نظام التفكير المجرد ، و روح المساءلة المستمرة للوجود و الكائن، وكل ما يقع على هامش الانشغالات الحقيقية. و بخلاف ذلك، فإن التقليد الفلسفي منذ القديم حتى هايدغر M. Heideghr مرورا بسبينوزا Spinoza، و لوكريس Lucrèce و كانط E. Kant و نيتشه F. Neitgshe، فإن الفلسفة قد تم تصورها بوصفها « محاولة لتعريف الحياة الجميلة، السيد الجميل، الحياة السعيدة و

الحكمة التي تقود إليها، إنها محاولة للإجابة عن السؤال الكبير المتعلق بمعنى الحياة بالنسبة للكائن ، الحياة المنذور للموت، و هو ما أسميه الروحانية اللائكية Spiritualité laïque أو مذهب الخلاص بدون الإله »(3). تلك هي غاية الفلسفة و أقصى ما يمكن أن يطاله خطابها النظري، خلاص الإنسان بعيدا عن التعالي اللاهوتي و الميتافيزيقي. نحن إذن أمام ما يمكن تسميته بفلسفة المعيش la philosophie du vécu ، التي أحدثت قطيعة مع منظومة التفكير التقليدية، حيث الأسئلة و التأملات متمركزة في القضايا الكبرى: الحرية، الوجود، الله، الإنسان، الماهية، الجوهر.... وكان سارتر JP.Sartre آخر ممثل لها، فيما تجسدت فلسفة المعيش في أعمال الفلاسفة الجدد في فرنسا أمثال برنار هنري ليفي B.H.levy و أندريه كلوكسمان A.Glukman و حتى جان بودريار J.Boudrillard .

ضمن هذا السياق يدفع فيري بعمله الفكري نحو مصالحة بين الفلسفة التي هي بحث مستمر عن معاني السعادة في العالم و ثورة الحب التي من شأنها أن تعيد تأسيس منظومة التصورات و العلاقات بين الأفراد. و في هذا السياق يرى أن هناك أربعة مبادئ كبرى تمحورت حول معنى الحياة الجميلة و الحكمة و سبقت ثورة الحب أجملها في:

1- المبدأ الكوسمولوجي Le principe cosmologique
2- المبدأ اللاهوتي Le principe théologique
3- المبدأ الإنسانوي Le principe humaniste
4- المبدأ التفكيكي التقويضي Le principe de la déconstruction

تمثل المبدأ الأول الأوديسا " لهوميروس؛ إن أوليس يروم الخلاص من الفوضى و الاغتراب بحثا عن الانسجام و السعادة أو « العبور من الحرب إلى السلم، من ايريس Eris (ممثلة للفتنة Discorde) إلى إبروس Eros، من الحقد إلى الحب، من الفوضى Chaos إلى الانسجام Harmonie ، من المنفى إلى العودة إلى الذات»(4).إن البطل يتقصى السعادة ولكن داخل العالم الكوسمولوجي، و هو ما يجعل الأوديسا – في نظر فيري – هي المبدأ المكون Matrice لكل تاريخ الفلسفة الإنسانية، قصة الإنسان مع السعادة في الكون(5).

و إذا كان أوليس يبحث عن الخلاص داخل الكون دون مساعدة الآلهة و ربما رغما عنها، فإن الديانات التوحيدية الثلاث تأسست على مفهوم الخلاص في كنف الإله و الإيمان، و هو ما يلخص المبدأ الثاني. و يتجسد معنى الحياة السعيدة وفق المبدأ الإنساني في محاولات القطيعة الشاملة مع العالم القديم و منظومته التصورية؛ فمع عصر النهضة، و بفضل جهود الفلاسفة الإنسانيين Humanistes من بوكاشيو إلى إيراسموس و دانتي و مونتاني و غيرهم، وصولا إلى ديكارت استقامت النزعة الإنسانية الحديثة، موجهة سهامها إلى مراكز القمع و الإخضاع التي

مورست على الإنسان. و في هذا المنظور لن تعود السعادة منوطة بالبحث عن الانسجام داخل نظام الكون أومنظومة الدين، و لكن ضمن المشاركة في صناعة التاريخ.

تبدأ مرحلة خطيرة في تاريخ الفكر الغربي مع شوبنهاور Schopenhauer و تتعمق أكثر مع نيتشه و هايدغر، إنها مرحلة التفكيك و التقويض، ففيها يُمارس فكر جذري عمله التهديمي، مستعينا بأدوات الخلخلة و الزحزحة ، مستهدفا المفاهيم الميتافيزيقية و المركزيات اللاهوتية و حتى التصورات الانسانوية، يطلق نيتشه نداءه عن " موت إلهه " ، و يعقبه ميشال فوكو M.Faucault بمفهومه عن " موت الإنسان ". و هكذا « فإن نيتشه و التقويضيين، يحاول كل منهم، و بطريقته الخاصة تطوير مذهب في الخلاص، محايث بشكل جذري للحياة بكل ما فيها من إنساني، الحياة و كفى. إن الحياة الناجحة عند نيتشه هي الحياة الكثيفة و الحرة،... و هو بذلك يواصل عمل سبينوزا: الخلاص يكمن في المحايثة L'immanence و ليس في التعالي Transcendance »**(6)**.

يطرح الكتاب مسألة تفوق الحضارة الغربية من منطلق خصوصيتها في تجذير مفهوم الكائن الحر خلاف جميع الحضارات البشرية الأخرى. إن فكرة فرانسيس فوكوباما عن نهاية التاريخ – في منظور فيري – تبدو صائبة، من جهة « أن الإنسان الذي أراد أن يكون حرا، قد التقى بذاته »**(7)**. ألم يعرف كانط "الأنوار" بأنها خروج الإنسان من قصوره الذي هو مسؤول عنه، و المتتمثل في عدم الجرأة على استعمال عقله، ألم يصرخ كانط: تجرأ على استعمال عقلك باعتبار ذلك روح و جوهر الأنوار. و إذ يبلغ الإنسان هذه المرحلة من التطور يكون قد حقق غاية نضالاته و صراعاته طيلة التاريخ..

و لكن هذه الأنوار التي حررت الكائن المغلول تلقت سهام النقد الحادة، و أجهزت عليها معاول التقويض، أحيانا بدعوى أنها تؤسس أوهام الميتافيزيقا عند هايدغر أو من منطلق النزعة العدمية Nihilisme كما هو الشأن بالنسبة إلى نيتشه أو بوصفها تعبيرا عن الأيديولوجيا البورجوازية التي تعمل على إغراق الناس في الأوهام من أجل السيطرة عليهم و إخضاعهم كما يقول ماركس.

و إذ يتحمس لوك فيري للفكر الجمهوري الديمقراطي الذي تنامى على أيدي فلاسفة و مفكري الحداثة، فإنه – و هذا يُحسب له- يوجه أسئلة محرجة لبعض أعلام هذا الفكر أمثال ألكسيس دوتوكوفيل A. Detocqueville و جول فيري J.Ferry؛ فالأول يكتب "عن الديمقراطية في أمريكا" de la démocratie en Amérique ، مواجها بعنف و التزام فكري لا نظير له مسألة العبودية، و لكنه يتحول إلى مناصر شرس لاحتلال الجزائر، بحيث يحق لنا – كما يقول فيري – أن نتحدث عن الدكتور توكوفيل و السيد ألكسيس « الأول مناضل متعال من أجل إلغاء العبودية، و الثاني مناصر مشهدي للجنرال بوجو Bugeaud ، ينتج خطابات ملتهبة في تمجيده

»**(8)**. أما جول فيري، مؤسس التربية اللائكية في فرنسا، فلم يكن بمنأى عن هذه الروح العنصرية، كان مقتنعا بضرورة أن يتم تصدير المشروع التربوي الفرنسي إلى المناطق المستعمرة، من هنا تأتي أهمية العبـارة" أجدادنا الغوليون Nos ancêtres les gaulois الأثيرة عنده، و كأنه يستعيد مقولة توكوفيل: « إننا أكثر استنارة و أكثر قوة من العرب »**(9)**. وغيرها خطابات العنصرية.

ولكن كتابات كلود ليفي شتروسC.L.Straus تأتي ردا علميا على هذه على ذلك . لقد كان ليفي شتروس يرى أن العقل البدائي يقوم بنفس العمليات المنطقية التي يقوم بها العقل المتحضر، و أن وحدة الفكر البشري تثبتها الأنثروبولوجيا المعاصرة. و لكن يبدو لي أن لوك فيري – بشكل ما – يعيد إنتاج خطاب الهيمنة ، يتساءل عن مفهوم " الحضارة الكبيرة " une grande civilisation ، مشيرا إلى أنها تلك التي تتجاوز خصوصيتها و تقدم للإنسانية رسالة شاملة . من هذا المنظور فالحضارات العربية – الإسلامية و الصينية و الهندية هي حضارات كبيرة.

و لكن لماذا نفضل الحضارة الغربية؟ يتساءل؛ لأن هذه الحضارة ألقت بضلالها على الإنسانية إذ قدمت إليها شيئا فريدا و ثمينا و عظيما إنه « ثقافة استقلالية الأفراد التي لا نظير لها في أي مكان، و ضرورة التفكير انطلاقا من الذات، خروج الإنسان كما يقول كانط من هذا القصور الصبياني الذي كرسته الحضارات الدينية و النظم اللاهوتية و السلطات الاستبدادية » **(10)**.

لوك فيري واضح في هذا الشأن: الحضارة الغربية أسمى من غيرها من الحضارات كونها حققت شوق الإنسان إذ قدمت له الحرية و الفردية و أعتقته من كافة أنظمة الوصايا الميتافيزيقية و الدينية و السياسية، الحرية في أشكالها الثقافية و الاجتماعية و الفردية أيضا ، من خلال هذا المرور من نظام الزواج التوافقي Mariage arrangé إلى ما يسميه الزواج القائم على الحب Le mariage de l' amour .

و من داخل النظام الفلسفي الغربي تتعالى أصوات التقويض و ترفع معاول الهدم ضد هذه العقلانية الطاغية التي أزاحت سلطة الميتافيزيقا و لكنها تربّعت على عرش سلطة أخرى أكثر قهرا و استعبادا. و هكذا يدشن فوكو من خلال " تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي Histoire de la folie a l'Age classique مرحلة من العنف الفلسفي في مواجهة عقلانية مستبدة، عملت بشكل منظم على إقصاء كافة القوى الأخرى التي لا تعترف بها و منها الجنون، مشيدة مراكز الاعتقال و النبذ و الإقصاء ضد أفراد لم يخضعوا لنظام العقل المتمركز حول نفسه، ليتحول التقويض نفسه إلى سلطة و تجربة قهر عنيفة، بل ينتهي إلى ايديولوجيا تكرس مجتمع الاستهلاك، فبقدر ما تحطم القيم و تقوض المثل الأخلاقية و الدينية و قيم الوطنية و مواصفات الذوق و الأشكال التقليدية للتمثيل Représentations **(11)**، فإن ذلك يحقق حلم الرأسمالية بأن يتخلص المستهلك من كل ما يمثل مرجعية ثابتة من شأنها أن تعرقل حركة السوق الطاغية.

إن كتاب لوك فيري هذا – رغم كل التناقضات و القناعات الدوغمائية – عمل فلسفي غني، يعيد بناء ما تعارفنا عليه و يسائل ما بدا لنا بديهيات، و يكفيه ذلك ليكون مأدبة معرفية شهية.

الهوامش:

1- لوك فيري فيلسوف فرنسي ووزير سابق للتربية، يشتغل على مشروع إعادة بناء التصورات الفلسفية السائدة وتقريب الفلسفة من الهموم و الانشغالات المتعلقة بالمعيش، له أعمال كثيرة في هذا الشأن.

2- Luc ferry, de l'amour, une philosophie pour le xxi siècle, éd Odile Jacob, 2012, Janvier2014. paris

3- ibid., p 16/17.

4- Luc ferry, mythologie et philosophie: l'odyssée ou le miracle grec, édité par la société du figaro, paris, 2015,p13.

5- Entretien avec Luc ferry, le figaro, samedi 14- dimanche 15 mars 2015. (إن طرح لوك فيري عن الوظيفة العملية للفلسفة هو امتداد لتراث فلسفي طويل ، يمكن الرجوع في هذا الشأن مثلا إلى: عقيل يوسف عيدان ، الفلسفة خارج الجامعة ، مقال في مجلة العربي ، عدد 683 ، أكتوبر 2015 ، ص74)

6- Luc ferry, de l'amour, p45.

7- ibid., p51.

8- ibid., p108.

9- Alexis de Tocqueville, seconde lettre sur l'Algérie, éd zirem, Bejaia, 2006, p10.

10- Luc ferry, de l'amour, p126.

11- ibid., p201.